زيدان ورشيد رضا
مودة البدايات.. وخصومة النهايات

د. عمر رياض

الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) اللبنانى الأصل من أكثر الشخصيات تأثيرا فى التاريخ الإسلامى الحديث وخاصة فى الدوائر السلفية المعاصرة، والذى مثل كثير من أقرانه الشوام قدم رشيد رضا إلى مصر ليدخل عالم الصحافة الإسلامية فى القاهرة. وصل رشيد رضا إلى الإسكندرية فى أواخر ديسمبر عام ١٨٩٧ على متن السفينة النمساوية مع صديقه القديم فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) تتلمذ فيها على يد الشيخ محمد عبده، ليبدأ رحلة حياة مملوءة بالأحداث تفاعل فيها مع كثير من الأوساط الفكرية والسياسية، ومن بينها على وجه خاص نصارى الشوام والذى اتسمت علاقاته معهم بالتعاون والود

تارة والصراعات والمواجهات الدينية والسياسية تارات أخرى والتى أثرت عليها التغيرات السياسية، إلى جانب قناعات الشيخ رضا الدينية والسياسية ولا سيما دفاعه المستميت عن مفهوم الإسلاموية أو العروبة. وعلى الرغم من القواسم المشتركة بين صاحب المنار وأقرانه من نصارى الشام تجاه مفهوم التقدم والعلم والإصلاح، فقد ولدت مواقفه تجاههم مناقشات وخلافات مثيرة ترتكز على أساس الدين والتاريخ والفلسفة الإسلامية والأدب. والسبب الجوهرى فى ذلك هو أن رشيد رضا ظل يبنى أفكاره على فهمه للإصلاح من جانب الوحى القرآنى والازدهار التى اتسمت به القرون الأولى وما يسمى بالعصر الذهبى للإسلام، وهو بهذا على خلاف أولئك المثقفين النصارى الذين قد أداروا ظهورهم فى غالب الأحيان لبعض مفاهيم دينهم الأصلى وبنوا أفكارهم للحداثة من منظور غربي.

جاء رشيد رضا إلي مصر ليدخل في علاقات شائكة مع نصاري الشوام من الود والتعاون إلي الصراع والصدام

ومن بين هؤلاء بالطبع صاحب هذا العرس الأدبى الذى بين

أيدينا جرجي زيدان. التقى رشيد رضا بزيدان في صحبة فرح أنطون في يناير ١٨٩٩ في مكتب جريدة الهلال وذلك بعد أيام قليلة من وصوله إلى مصر. وقد ركز أول حديث لهما على حالة الصحافة في مصر. وبعدها بدأ زيدان بإرسال جريدته ورواياته الأدبية عن التاريخ الإسلامي لرشيد رضا ليقرظها في جريدته المنار والتي أسسها في أوائل هذا العام نفسه. وفي هذه السنوات الأولى ظل رشيد رضا يشيد بزيدان في مناسبات عديدة على دقته وذوقه وإنصافه في التاريخ (المنار ٢/٩، ١٨٩٩، ص ١٤٠). وبعد مرور سبعة أعوام على إنشاء الهلال كتب رشيد رضا يقول إنها: "بلغت فيها بجده واجتهاده وحسن اختياره للمواضيع المستعذبة مبلغًا في الانتشار سبقت فيه جميع المجلات العربية فيما نعلم بحيث صار هلالها بدرًا كاملاً، فلا زالت بسعيه مشرفة على الأقطار، مشرقة بأنوار المعارف التي هي أنفع من أنوار الأهلة والأقمار" (المنار ٢/٣٢، ١٨٩٩، ص ٥١١).

تعرف جرجي زيدان علي رشيد رضا عن طريق فرح أنطون.. وأشاد رضا كثيرا بالهلال وصاحبها علي صفحات المنار

وفي تلك الفترة تصدى الشيخ رضا للدفاع عن زيدان ضد اتهام بعض المسلمين له بالتعصب الديني باعتباره مفكرا مسيحيا يكتب عن التاريخ الإسلامي. ولما نشر زيدان روايته عن الحجاج بن يوسف ركزت هذه الانتقادات على أن قصص زيدان تحوي أخبارا كاذبة مما يشتبه على القارئ الحق بالباطل، وكذلك من ناحية استثقال نسبة العشق والغرام في رجال السلف الصالح في هذه الرواية. وبعد تصفح رشيد رضا للقصة رأى أن الحوادث الغرامية لم تسند إلى أحد من رجال السلف والأئمة. وأما عن مسألة الاشتباه فقد وافق رشيد رضا زيدان فيما ناله في مقدمة الرواية أنه جاء بحوادث الرواية تشويقًا للمطالعين، وأن التوسع في الوصف لا تأثير له على الحقيقة. هنا يدافع رشيد رضا عن زيدان بأنه: "أبعد خلق الله عن التعصب الديني وأحسنهم إنصافًا فإن فرط منه ما أوجب الانتقاد أو يوجبه فهو

عن غير سوء قصد" (المنار ٥/٩، ١٩٠٢، ص٣٥٦).

وفى نفس العام توجه أحمد حامد بدوى أحد شيوخ الأزهر فى مصر بسؤال لرشيد رضا حول رواية زيدان عذراء قريش، وحول ما أورده زيدان عن قراءة على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – الفاتحة عند قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام مما يخالف عقيدة السلف فى عدم جواز قراءة القرآن على القبور. وفى فتواه اكتفى رشيد رضا بقوله إن الأخبار والآثار التى يحتج بها شرعًا لا تؤخذ من القصص ولا من كتب التاريخ وإنما تؤخذ عن المحدثين الذين يبينون أسانيدها، وأن الأثر المنقول فى الرواية غير صحيح، دون توجيه أى اتهام لجرجى زيدان (المنار ٥/١٣، ١٩٠٢، ص ٥٠٨).

ولما ظهر الجزء الأول من تاريخ التمدن الإسلامى انبرى بعض الكتاب لانتقاد زيدان على صفحات جريدة المؤيد فى مقالات يظهرون فيها ما عدوه عليه من الخطأ فى بعض المسائل و التى قد رد زيدان على بعض منها واعترف ببعض الخطأ، لكن رشيد رضا ظل يسميه الصديق المنصف، وأن الأمة على الرغم من هذا مازالت فى افتقار إليه شديد، وأن هذا الكتاب بالذات مثال

الشيخ محمد رشيد رضا

مفيد لقراء العربية، وأن مؤلف الكتاب من وجهة نظر رشيد رضا لم يكتب إلا ما اعتقده مع حسن النية وصحة القصد (المنار ٥/١٤، ١٩٠٢، ٥٥٤).

وعلى نفس النهج دافع رشيد رضا عن زيدان فى رواياته التاريخية الغرامية فتح الأندلس، و فتاة غسان. وقد قرأ صاحب المنار الرواية الأولى بلذة عظيمة، قائلا إن القارئ لا ينتهى من فصل من فصولها إلا بشوق يلح به، ويحفزه إلى قراءة ما بعده حتى ينتهى بالفصل الأخير. أما عن فتاة غسان فكانت اللذة فيها لا تقل عن اللذة فى أختها، وعبارتها أسلم من عبارتها، وفائدتها فى التاريخ الإسلامى أكبر من فائدتها. أما عن الأغلاط التاريخية فقد رأى رشيد رضا أنه لايسلم من هذا أى كاتب. ومن المسائل التى يرفضها رشيد رضا فى هذه الرواية هى مسألة الغرانيق المشتهرة فى بعض كتب السيرة النبوية، ولكن رشيد رضا يعذر زيدان فى أنه رأى هذه الرواية فى كتب الطبري، فنظمها فى سلك الحكاية دون تفنيد. وهنا يبرر رضا من أن هذا من باب اعتياد زيدان والكتاب من نوعه على التساهل فى النقل، والاعتماد على المعنى الذين يفهمونه، حتى لو كان هذا فى

الأمور الدينية، وهو عند المسلمين عظيم. وللمؤلف المسيحي العذر في تصديق مسألة ذكرها بعض علماء المسلمين (المنار ٦/١٠، ١٩٠٣، ص ٣٩١-٣٩٢).

ومع ازدياد حدة نقد بعض الكتاب المسلمين لكتابات زيدان، تتولى مجلة المنار الذب عنه على أنه كاتب لم يعرف عنه يوما أي شكل من أشكال التعصب الديني. فمع ظهور الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي على سبيل المثال ظل رشيد رضا على اعتقاده في إنصاف المؤلف على الرغم من رمي بعض المسلمين له بالتعصب، حتى وصلت شكواهم إلى الأزهر كأكبر معاهد العلم الإسلامي في مصر، وقد كتب أحد علماء الأزهر في دمياط، يطلب من المنار الرد على زيدان من أنه بجانب تنويهه للإسلام والمسلمين من الفضل إلا أن في طوايا كتابه وزوايا الكثير من صحائفه ما يرمي المسلمين في العصر الأول بالجمود والتعصب الديني مثل ما أورده زيدان في قضية الخلاف في مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والحنابلة. وهنا يرد رشيد رضا ثانية أنه على الرغم من ما أورده زيدان وأنه منتقد في كثير مما يقوله إلا أن الكاتب لا يقصد إهانة الإسلام والنيل منه، وأنه يقول ما وصل إليه علمه بحسن نية، وأن سبب وقوع هذه الأغلاط في كتبه هو أنه لم يدرس المسائل الإسلامية عن أهلها من كتبها، وإنما يتناول نتفًا منها من كتب التاريخ والأدب وغيرها؛ فيجيء بيانه للمسألة أو حكمه عليها خطأ في بعض الأحيان. ومع هذا ظل رشيد رضا على شكره للمؤلف على عنايته واجتهاده وسبقه إلى إدخال أساليب التأليف الحديثة في اللغة العربية، وأنه لا عصمة لأحد في اجتهاد (المنار ٧/١٣، ١٩٠٤، ص ٣١٧-٣١٨).

وقد ظلت المنار على هذا المنوال إلى عام ١٩٠٨ حتى بدأت نبرة صاحبها تتغير تجاه جرجي زيدان ومؤلفاته، وخاصة كتابه العرب قبل الإسلام، وذلك من خلال مقالين نشرتهما المنار للشيخ أحمد عمر الإسكندري (١٨٧٥-١٩٣٨) من مدرسي

عندما اتهم جرجي زيدان بالتعصب الديني.. كتب رشيد رضا بأنه أبعد خلق الله عن التعصب الديني

الآداب العربية فى المدارس المصرية، واللذان صب فيهما النقد على زيدان والذى عرفه الناس فى مصر معلمًا فمترجمًا فصحافيًا ففيلسوفًا لغويًا فنسابة فروائيًا مبتدعًا فمتفرسًا فمؤرخًا خياليًا قصاصًا. لكن الشيخ الإسكندرى يستغرب كيف أن الأمر تطور فى مصر وأن الناس أصبحوا يستقبلون منه الآن مؤرخًا إسلاميًا محققًا، على الرغم من تحامله على العرب فى كتابه هذا. وفى البداية يعترف الإسكندرى بفائدة الكتاب لمن لا يجيدون اللغات الأوروبية مما ترجمه المؤلف من آراء بعض قدماء اليونان فى الجغرافيا العربية، وبعض آراء بعض سياح الأوروبيين فى شمال جزيرة العرب وجنوبها، وبعض الصور والرسوم والخطوط والنقود التى نقلها من رحلات هؤلاء السياح، مثل رسم سد مأرب، وبعض قصور اليمن، وهيكل تدمر والبطراء. إلا أنه رأى أن زيدان يتردد بل وينكر أحيانا بعض الحقائق التاريخية البديهية، ويتشبث بتحقيق بعض الظنون والتخرصات، اعتمادًا على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط (المنار ١١/٩، ١٩٠٨، ص ٦٨١).

وفى يناير ١٩١٢ نشرت المنار

انتقادات حادة أطلقها المؤرخ الهندى الشهير الهندى شبلى النعمانى (١٨٦٩-١٩١٤) -مؤسس جمعية ندوة العلماء فى الهند- لكتاب تاريخ التمدن الإسلامى والذى كان قد مدحته المنار من ذى قبل، وذلك فى عدة مقالات اتهم فيها النعمانى زيدان بالتقليل من شأن العرب والإساءة إليهم، ومثل الشيخ رشيد رضا فقد كانت تربط النعمانى بزيدان علاقة جيدة، وكان يدافع عن كتاباته ضد أى اتهام صارخ لتشويه التاريخ العربي. أما فى هذه المقالات بدأ النعمانى يتهم زيدان بتزييف وتغيير الحقائق حول التاريخ الإسلامي، وأن زيدان يرتكب فى كتابه هذا تحريف الكلم وتمويه الباطل، وقلب الحكاية، والخيانة فى النقل، وتعمد الكذب ما يفوق الحد ، ويتجاوز النهاية. وكان النعمانى على دراية بمدح زيدان له فى كتبه كأشهر علماء الهند ، لكنه حسب تعبيره لم يكن يرضى أن يمدحه زيدان على حساب هجاء العرب (انظر مقالات النعمانى فى المنار م ١٥، ١٩١٢). ومما زاد الأمر احتداما هو أن رشيد رضا فى نفس السنة قام بجمع مقالات كل من الإسكندرى والنعمانى ونشرها فى كتاب أصدرته مطبعة المنار

تحت عنوان كتاب انتقاد كتاب تاريخ التمدن الإسلامي.

أما من جانبه ، فلم يكن يتوقع زيدان هذه الحملة ضده، وقد أصابه الإحباط الشديد، حتى إنه بعد بضعة أشهر من نشر هذه المقالات اشتكى لابنه إميل أن آراء الإسكندرى والنعمانى أظهرت بعض جوانب الكراهية الدينية والتعصب التى واجهها طيلة حياته مما لا يستحق أى رد. أما عن رشيد رضا والنعمانى فقد أظهرا له هذه الوجه بعد أن كان يعتبرهما صديقين حميمين، ولم يكن يتوقع بأى حال أن يصبحا خصمين له لهذه الدرجة. ومع ذلك، فقد كتب محمد مصطفى أحد قراء الهلال المسلمين من الإسكندرية إلى زيدان يواسيه فى محنته هذه مؤكدا على نزاهته التاريخية (الهلال ٢٠/٩/١٩١٢، ص ٥٦٢-٥٦٣)، لكن زيدان اكتفى بالتعبير عن حيرته من هذا التحول المفاجئ فى موقف كل من رشيد رضا وشبلى النعمانى دون ذكر السبب الحقيقى من وجهة نظره. لكن فى رسالة لابنه إميل يوضح زيدان أن السبب وراء هذا كله هو غيرة صاحب المنار من نجاح الهلال وشهرة كتب زيدان وتفوقها، حتى أن زيدان بدأ يشك فى أن رشيد رضا كان أحد المعارضين لترشحه لتدريس مادة فى التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية، ويرجع زيدان هذا أيضا إلى سبب آخر وهو ما رآه من فشل لرشيد رضا فى تقليده فى كتابة الروايات التاريخية عن الإسلام فى المنار مثل ما فعل زيدان فى الهلال طيلة هذه السنين.

أما من ناحيته فلم يتهم رشيد رضا زيدان صراحة بأى نية لتشويه تاريخ العرب والإسلام، لكنه كان قلقا إزاء ترجمة أعمال زيدان إلى اللغة التركية والذى كان من شأنه أن يزيد من حدة العداء العثمانى التركى للنزعة العروبية التى كان رشيد رضا من أنصارها فى هذه الفترة، وخاصة إذا ما عرفنا أن مترجم أعمال زيدان للتركية كان زكى مغامز أحد نصارى حلب، والذى كان يعرف عنه المشاعر المعادية للعرب. وقد كان مغامز يشتكى

دافع رشيد رضا طويلاً وكثيراً عن روايات تاريخ الإسلام ورأي أن بعض الأغلاط التاريخية شئ وارد

لزيدان من أن بعض الرسوم التوضيحية فى كتبه عن الحضارة العربية تظهر العرب بشكل إيجابى متفوق مما يجب إعادة النظر فيه. وقد كان مغامز أحد مترجمى القرآن إلى اللغة التركية، وقد كان رشيد رضا يشتبه فيه لما رآه من محاولات من جانبه لتشويه متعمد للقرآن ونصه من خلال مشاركته فى هذه الترجمة. ولنا أن نؤكد هنا أن زيدان قبل وفاته أصبح من المتعاطفين مع الأتراك، وكان يعارض بشدة أى محاولة عربية لتشكيل حركات سياسية تدعو إلى استقلال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية، مثل حزب اللامركزية والذى كان رشيد رضا أحد زعمائه.

ويعد وفاة زيدان فى عام ١٩١٤ أوضح رشيد رضا هذا الموقف صراحة حينما نشر تأبينا لزيدان فى المنار، وقد اعتبر رشيد رضا فقدانه فجيعة كبرى لمصر والشام. وأفصح رضا أنه مازال يعتبر زيدان أحد أركان النهضة العربية الحديثة، الذى كان لا يكل فى خدمة الصحافة العربية والأدب. فبوفاته "فقدت الأمة العربية بهذا الرجل ركنًا من أركان نهضتها الحديثة فى العلم والأدب، بعد أن نضج علمه، واتسعت معارفه، وكملت تجاربه، وصار أقدر على إتقان خدمتها، ومساعدة نهضتها." وظل رشيد رضا معجبا بالجهد المضنى لزيدان حتى أنه قد أتم قبيل وفاته "تصحيح آخر كراسة من آخر جزء من أجزاء السنة الثانية والعشرين للهلال، وآخر كراسة من كتاب تاريخ العرب. وبعدها تنفس الصعداء من تعب ليلة شعر بأنه ألقى عن عاتقه فى أولها تعب عشرة أشهر، ثم ألقى نفسه على سريره ليبدأ فيها باستراحة شهرين كاملين ، فغاضت نفسه ، فإذا هو قد ألقى عنها تعب ربع قرن فى الجهاد العقلى كان هو القاضى على مادة ذلك الدماغ الذى يشبه معملاً من معامل الكهرباء، فى السرعة والنور والحرارة والضياء، والمقوض لدعائم تلك الحياة الحميدة، حياة الجد والعمل والعفة والاستقامة."

وبعد عرض موجز لحياة زيدان الأولى وعصاميته المادية والأدبية، اعتبر صاحب المنار أن نفس زيدان العصامية كانت "هى الحافزة لهمته والباعثة له على طلب العلم، وكان يقصد من العلم أن يعمل به فيفيد مالاً وجاهًا يكون به فى مقدمة أمته لا فى ساقتها. ولذلك حصل بجده وقوة إرادته فى الزمن القليل ما

مكنه من العمل الذى عجز عن مثله من هم أكثر منه تحصيلاً، وأوسع فى العلوم والفنون عرفانًا." ولذا فقد أظهرت كتبه وروایاته الغرامية الممزوجة بالتاريخ الإسلامى "من خطته فيما ينشئ وينقل أنه من أقدر من اشتغل بالصحف العربية والتأليف فى هذا العصر، أو أقدرهم على جذب جمهور القراء إلى ما يكتب، بمحاولة جعل ما يكتبه لذيذًا سهل الفهم ، كالطعام اللذيذ سهل الهضم."

وفى هذا الصدد ظل رشيد رضا على موقفه الأول من دفاعه عن زيدان بأنه كان شخصا "سلمًا نزيه القلم"، وأن أغلاطه التاريخية لم تكن لقصد تشويه الإسلام كما اتهمه بعض سيئى الظن من المسلمين والنصارى.

غير أن بعض النصارى كانوا يتهمونه بضد ما يتهمه به بعض المسلمين من مصانعة المسلمين ومحاباتهم، ومدح الإسلام والمسلمين تقربًا إليهم لأجل الكسب منهم.

وهنا يبين رضا الوازع الذى دفعه لنشر مقالات الإسكندرى والنعمانى وهو موقف جرجى زيدان بعد الانقلاب العثمانى ونزعته فى إحياء مذهب الشعوبية وزيارته للآستانة ولقائه بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي، وتصويبه لخطة الاتحاديين الأولى من تتريك العناصر وإدغام العرب فى الترك. فبعدما كتب زيدان فى الهلال ما يشعر بهذه النزعة، هاج ما كتبه جماعات فتيان العرب فى الآستانة وسوريا. مع ظهور نزعة زيدان هذه بدأ البعض يفطن لما رأوه مطاعن للفقيد فى العرب أودعها فى تاريخ التمدن الإسلامي. وزادهم التفاتًا إليها ترجمة جريدة إقدام التركية لتاريخ التمدن الإسلامى ونشره فيها بالتتابع. ولذا تشاور كثير من الشبان المتعلمين فى الرد على هذا التاريخ، لكن شبلى النعمانى أراد أن يتولى هذه المهمة، والذى كان صديقا مشتركا بين زيدان ورشيد رضا، والذى قد طلب نشر مقالاته فى المنار لما عهدوا من زيدان تلقى الانتقاد عليه بسعة الصدر.

مع بداية ١٩٠٨ بدأت نبرة المنار تتغير من الدفاع إلي الهجوم علي جرجي زيدان وكتاباته وخاصة كتاب «العرب قبل الإسلام»

أما عن حدة نبرة النعمانى يبرر رشيد

رضا أنه لم يكن يعلم بها لعدم قراءته الرد بتمحيص، وأنه بادر بأمر النشر وهو في رحلته في الهند عام ١٩١٢ . لكنه حين قرأه بعد عودته من الهند وعمان والعراق وسوريا، رآه فوق ما كان يظن من شدة الرد، ورمى الفقيد بسوء القصد.

الشيخ شبلي النعماني

وقد أخبر النعماني رشيد رضا عند لقائه في الهند أنه كان يرى بعض الغلط في تاريخ التمدن الإسلامي وغيره من مؤلفات صاحبه فيحمله على الخطأ أو سوء الفهم، ولكنه لما قرأ مجموع طعنه في العرب جزم بأنه صادر عن سوء قصد. وهذا سبب شدة حملته عليه، على ما كان من مودته له. ولهذا السبب فقد أثر رشيد رضا أن يذكر تلك الأسباب في مقدمته للكتاب الناقد لزيدان وأنه لايتفق مع شبلي في الطعن الشخصي من زيدان، لأنه يخص رجلا صديقا وعضوًا نافعًا في الأمة. وقد علم رشيد رضا بثقل وطأة رد الشيخ شبلي النعماني على زيدان لشدته؛ ولأنه كان يعده من أصدقائه، وأثنى عليه غير مرة في هلاله، فلم يصدق أولاً أنه هو المنتقد. وقد اتهم زيدان رشيد رضا صراحة بوقوفه وراء هذه الحملة، حتى إنه كتب إلى الشيخ شبلي رسالة ذكر فيه ذلك، راجيًا أن يكتب إليه متنصلاً من هذا النقد اللاذع لينشر في الهلال، ويظهر أن النقد لصاحب المنار. وقد اطلع رشيد رضا على هذا الخطاب أثناء زيارته إلى الهند، وقد عاتب رشيد رضا زيدان بعد عودته في هذا موضحا له أن المقالات نشرت في غيبته.

ومع ذلك ظل رشيد رضا على مدح زيدان وأن عقله كان أكبر من علمه، ومن فضل عقله على علمه حسن اختيار ما كان يكتب. وإن سبب انتقاده هو أنه كان يكتب في الغالب في مباحث لم تسبق له دراستها، معتمداً على مراجعتها من مظانها عند الحاجة إليها. فقد كان يكتب المقالة في يوم أو أيام أو ساعة أو ساعات؛ لأجل أن تنشر في مجلة شهرية، ويؤلف الكتاب في عدة أشهر؛ لأنه وعد بنشره في وقت معين من السنة، لكن تبقى الحقيقة من وجهة نظر رشيد رضا أن زيدان كان "أديب النفس ، نزيه اللسان والقلم ، بشوش الوجه معتصمًا بحبوة الجد، متنزهًا عن اللغو والعبث، محبًا للنظام ، حفيًا بالأهل، وصولاً للرحم ، محبًا للقريب" (المنار ٨/١٧، ١٩١٤، ص٦٣٠-٦٣٢).